الإضبارة الحزبية

منبر الإنسانية قلبها الصامت لا عقلها الثرثار

جبران خليل جبران

(ز) فتاة عراقية بغدادية كهضبة خضراء طولها، متوسطة الجمال رفيعة الأخلاق، شعرها فحمي بلون الليل طويل يطلق خصلات صغيرة منه حرة تتلقفها النسمات بحنان، تلفُ خصرها النحيل بعباءة سوداء لا تبدو عليها آثار الترف غير مُكترثة كثيرًا بها حين تتطاير، ثغرها الجميل حين تبتسم يشع بالطيبة والحنان وهي تظهر حازمة بأريحية حين تنطق، مُتحررة نشطة قادرة على إدارة دفة الحديث بلباقة وعفوية، تُشعرك أنها إنسانة قوية ومقتدرة، رقيقة ومُرهفة تجاه المواقف الإنسانية، ألهمها الله مَلَكة ثقة الناس بها، بحيث يستطيع المرء الاعتماد عليها بسرعة كبيرة.

جلستُ أضربُ أخماسي بأسداسي متربعًا على عرشي الأنيق في محل عملي المتواضع، أُفكِّر كيف لي الخلاص من هذه الورطة! نعم إنها ورطة ما بعدها ورطة، المهم كيف ليّ النفوذ من عنق الزجاجة سالمًا والخروج دون أذى كبير! كما أني لا أريد أن تتورط عائلتي بهذه المشكلة... إنهم يتابعوني بإصرار كالثيران التي تبحث عن علم أحمر، جاعلين أيامي مع لياليها كابوس مزعج، فكيف لي الرحيل من هذا الانحدار!

إثرَ مقابلتي لمسؤول كبير في قيادة القوة الجوية؛ استطعت إقناعه بحُججي تمَّ إحالتي على التقاعد الكامل، بعد تقديمي لسلسلة من الاستقالات دون راتب، ولذلك إكرامًا لخدمتي الجليلة في الجيش العراقي وهكذا أصبحت نوعًا ما كمواطن مدني ولكنهم لم يكفوا عن ملاحقتي يوميًا.

رجوت أصدقاء الخدمة لسنين طويلة في الجيش أن يساعدوني، إلا أنهم تملصوا ببساطة دون أي رد واستمر مسلسل الضغط عليّ وإلى أين المَفر!!

لدي أشخاص كانوا لسنين طوال تحت قيادتي قد حصلوا على مراتب متقدمة في حزب السلطة الحاكم في العراق آنذاك، رجوتهم، حاولت الحصول على مساعدتهم، وعدوني بذلك ولم يَفوا جُبناً وتمنعًا... استمرت متابعتهم لي بطريقة مُبتكرة أخرى وهي عن طريق التأثير على عائلتي والضغط على زوجتي، فكيف لي السبيل لإنقاذ نفسي وعائلتي من هذه الظُلمة الظلماء!

كانت (ز) تزور متجري بين فترة وأخرى لشراء بعض الحاجيات الذهبية والفضية البسيطة، وكانت غاية في دماثة الخلق والتهذيب، لها لسان كماء النهر الجاري عذب وصافي وينطق بالحكمة والإنسانية ممزوجتان ببساطة حنونة.

فشلت جميع محاولاتي ولم يبقَ لي ولعائلتي إلا أن نستعين بأفكار مستحدثة ومنها أن نركن سيارتنا في جراج جيراننا الطيبين لعدة أيام، وأخرى إطفاء أنوار بيتنا ظناً منا أنهم سيتركونا وشأننا ولم تنجح هذه المحاولات، إذ بدأوا بوضع قصاصات تبليغ تفيد بضرورة التحاقي بالشعبة الحزبية المسؤولة في ضاحية سكني الغزالية، والتي تقع على بعد أمتار مقابل محل عملي.

مرة أخرى دخلت حلوة المعشر (ز) إلى متجري وتبضعت أشياء صغيرة، سامحتها في الأسعار فكانت شكورة وممتنة وقبل انصرافها قالت لي:

– أنت بمثابة أخي الأكبر، وأشعرُ بأني أكون أخت لك، هذا شعوري نحوك وأحمدُ الله على ذلك...

ألقت تحيتها تاركة ورائها شحنة كبيرة من عطر الكرامة والإنسانية.

لم أغير مكان قصاصة تبليغهم وأبقيتها في مكانها، استعنت برحمة الله واتخذت أسلوب جديد في المُمانعة، حيث أرسلت زوجتي وأولادي إلى بيت أهلها في

ضاحية السيدية التي تقع في جانب الكرخ من العاصمة بغداد، وبقيتُ وحدي أدركُ حياتي في ظلامٍ مُصطنع، ولم ينفكوا من محاولاتهم الحثيثة.

لم أكن أرغب بالاستمرار معهم بعد أن فقدت قناعتي التامة بالنظام الحاكم بأكمله، وتلاشت قناعتي بمفهوم الوطنية والمواطنة إثر حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) عام ١٩٩١، نعم لقد اتخذت وعد على نفسي أن أنفصل عن كل ما يربطني بهذا النظام والحزب الحاكم والمنظومة بأكملها، وها أنا بحذر شديد أنفذ سياستي كي أصبح حُرًا ومتحررًا من جميع قيودهم وضغوطهم ورياءهم، ولكني أشقُ طريقي بخطورة وصعوبة بالغة، مُستند على خبراتي الحياتية والعملية في هذا المضمار، والتي أتت بأُكُلها سابقًا وأثمرت خيرًا.

زارتني (ز) مساء يوم صيفي حزين تبتسم وبريق عينيها يتراقص فرحًا وطلبت تصليح إسورة فضية معطوبة، أنجزت إصلاحها لها فورًا وبشعور ينمُ عن احترام وطيب خاطر رفضتُ استلام أجرة التصليح منها كردة فعل على كلماتها الطيبة بحقي، لم ترضَ بذلك إطلاقًا، حاولت إقناعها بكل السبل فلم تقبل إطلاقًا، فما كان منها إلا أن تركت مبلغ من المال على منضدة عملي، وألقت تحيتها برقة وكبرياء ومضت إلى عملها في الشعبة الحزبية، وأنا أغرقُ في شدة دهشتي مما فعلت للتو، بعد ذلك تكررت زياراتها السريعة لي.

الحمدُ لله أنهم لم يُدركوا مكان عَملي الذي يقع على بعد أمتار فقط من مقر الشعبة الحزبية، حيث الفتاة الطيبة (ز) تعمل لديهم، وهي التي أصبحت لاحقًا مَكمن سَعدي وحُسن طالعي، تركت بيتي وآثرت المبيت في بيت أهل زوجتي لعدة ليالي، ولم أجنِ سوى الفشل حيث استمروا بمضايقتي.

كان من الصعب عليّ أن أفعل شيء عن غير قناعة، أريد أن أتنفس بحرية دون ضغط، لذا أبيت أن أنصاع لرغباتهم، عندها ضاقت الدنيا بعيني حتى فكرت أن أنتقل إلى مكان سكن آخر، وفي هذه الفكرة تكمنُ صعاب جمة.

جاءت (ز) الطيبة وجاء الفرج معها، جلست على الأريكة الوثيرة التي كنت قد جلبتها من البيت خصيصًا كي يجلس الزبون بين طياتها مُسترخيًا حين يتبضع مرتاحًا، أسرعتُ لتقديم الماء البارد لها، لاسيما يبدو وكأنها قد سارت مسافة طويلة وتعبت حد اللهاث، ما أن هدأت حتى بادرتُ بالحديث وسألتها عن أحوالها وصحتها وحال أهلها فردت بهدوء ورقة ودلال غير مبالغ فيه، وقالت إنهم والحمد لله بخير وصحة وافرة، أعقبت بحديثي قائلاً:

– عزيزتي (ز) أنت قلتِ لي مرة أنك تعتبريني كأخ أكبر لك... هل تتذكرين؟

– نعم أتذكر جيدًا، وما أزال أكرر ذلك.

لم أدعها تكمل إجابتها إذ أطلقت عبارتي التالية:

– يا أختي (ز) إنني في مأزق عميق وأتمنى مساعدتك، وإن لم تقدري فلكِ العذر، ولكن تذكري قولك إنك أخت لي، فإن لن تقدري عوني فأرجو أن تدعي الموضوع جانبًا وتنسيهِ كُليًا، مع رجائي منكِ بعدم إثارته مع أي من الآخرين لأن الموضوع الذي أرجو مساعدتك فيه حساس جدًا وخطير، هل تعديني بذلك؟

قلتها ويديّ على قلبي، لحظة وندمتُ على أني أقدمتُ على هذه المحاولة لأن أية كلمة تخرج عن الخط الأحمر المرسوم من قبل النظام ستكون بمثابة رصاصة الرحمة في رأسي.

كانت تحدق في وتركز انتباهها على كلماتي التي خرجت من فمي مرتبكة ومُحافظة جدًا، كانت هادئة ومستقرة، بنظرة ثاقبة نظرت إليّ، وبابتسامة شُبه جامدة استقرت عيناها التي لمعت في عيناي، وفجأة عدلت من جلستها ولبست ثوب الجدية وقالت:

– ابشِر يا أخي أبا زيد، ما هو الشيء الخطير الذي تبغي فيه مساعدتي وإني لأوعدك خيرًا.

تلكأت وتأتأتُ ثم استجمعت أجزاء بدني ومن بعدها قوايَّ، تلوت صلواتي وقلت:

– هل تستطيعين جلب إضبارتي الحزبية من الفرقة الحزبية لتنظيم ضباط الغزالية؟ لقد ضايقني الرفاق كثيرًا للعودة والعمل في التنظيم المدني بعد تقاعدي من الجيش وليس لديَّ وقت لهذا، لاسيما وأنا أعمل وكما ترين جاهدًا كي أعيل ثلاث عوائل وأؤمن قوتهم، وأنا حاضر لأي خدمة أو غير ذلك.

كطفلة بريئة أطلقت (ز) بكل جوارحها ضحكة تعجب صاخبة ساخرة، بعد أن خرجت من وقارها المعهود قليلاً كاشفة في فمها عن صفوف أسنان مرصوفة كلؤلؤ ناصع البياض قائلة:

– أنا آسفة يا أخي على ضحكتي... عجبي على ما تقول، وهل هذا الشيء خطير جدًا لكي تُرعبتني به حيث توقعت أنه حقًا شيء كبير جدًا، أنت تتدلل على أختك وسوف أفعل ما تطلبه بكل يسر وممنونية...

وأضافت:

– إن جميع أضابير رفاق الفرقة والشعبة الحزبية موجودة في أرشيفنا، وأنا أعمل فيه وسأتي لك بها قريبًا، إنه حقًا لأمر بسيط جدًا فلا تبالي إطلاقًا وارتح...

غادرت المحل وعبائتها تُرفرف في الهواء مُخلفة عطرها خلفها، تاركة نفسي ترتجفُ رعبًا تحسبًا وانتظارًا، ما هي إلا ساعتين بحجم دهرين وتدخل (ز) محلي ثانية وهي تطلق ابتسامة عريضة وتقول:

– أبشر يا أبا زيد أنا وجدت إضبارتك الحزبية وهي في حوزتي...

سكتت تود إضافة شيء، لكني بدهشة ولهفة عارمة باغتتها بسؤالي:

– وأين هي يا أختي (ز)؟ هل جلبتها اعطني إياها!

– كلا لم أجلبها ولكن ذلك ضمن قدرتي وبسهولة، هل تُريدني أن أجلبها لك؟

أجبت حازمًا قبل أن تُنهي عبارتها فورًا:
– نعم، نعم اجلبيها من فضلك والآن إن استطعت شكرًا جزيلاً لكِ.

اتجهت (ز) مرة أخرى إلى مقر الشعبة الحزبية وما هي إلا دقائق معدودات إلا وتحتل مكانها على أريكتي المريحة، ترفع نهايتي عبائتها وكأنها تريد كشف طالع البشرية القادم كاشفة بيديها الرقيقتين عن إضبارة سميكة عتيقة كبيرة ثقيلة نتنة وتدفعها باتجاهي قائلة: تفضّل.

لم أصدق عينيّ، اعتقدت أني في حلم جميل، فورًا عدتُ بذاكرتي سنوات عديدة إلى الزمن السحيق حيث تذكرت أول تقرير حزبي كتبه أحد المناضلين ضدي وأنا في الأيام الأولى لسنتي الأولى كطالب جامعي في الاتحاد السوفيتي، وأنا جالس على عرشي الذهبي مددتُ كلتا يديّ، تلقفت هذه الإضبارة المقيتة كجندي على ساتر جبهات القتال الأمامي يتسلم كتاب إنهاء خدمته من الجيش، أو كنبي يمسك كتاب نزل عليه توًا من رب العظمة، حمدت ربي كثيرًا وسكنت قليلاً سريرتي وارتحتُ كثيرًا.

شكرتُ (ز) كثيرًا ووضعت قطعة ذهبية مناسبة في كيس مُلون ظريف، وحاولت دَسهُ في يدها بطريقة لا تحرجها ودون أن تجرح مشاعرها، لمعت عيونها اعترضت (ز) بقوة رافضة ذلك وبصرامة المُحاربين نبَسَت شفاهها بوضوح:
– أنا فعلت هذا الشيء البسيط جدًا لك لأنك أخي، وليس مُقابل أي شيء آخر، لذا أرجوك ألا تجرحني بهذا!

قالتها بهدوء الملائكة وانصرفت بكبرياء الأميرات، وتركتني أغرق ببحر حيائي وأحتضن إضبارتي الحزبية[1]، سِر تاريخي الضائع ومصدر قلقي خوفي وعذابي.

وهل تعلمون يا أعزائي القُراء ماذا وجدتُ في هذه الإضبارة اللعينة؟

(إنه شخص صابئي يمكن الاستفاد منه كمهندس فقط).

هكذا لَخَّصَ الضابط (أ.ر) المسؤول عن البعثة حياتي وحصيلة دراستي لخمس سنوات طوال شاقة بهذه الكلمات الثماني العنصرية المؤلمة...

نعم صدمتني هذه الكلمات القليلة بعددها والكبيرة بمضمونها الخبيث، إنها أصابتني في أعماقي حد النخاع، إنه ألغى بها إنسانيتي ومضمونها، إنها جرحت كبريائي وسحقتني، إنه مسح وطنيتي بجرة قلم، إنها آلمتني بشدة حتى أعماقي، إنه تعمد تمييزي بعنصرية كوني لست على دينه... إنها آذتني بقوة حتى أحدثت ألم في معدتي، إنه تَقَصَدَ مَحو عراقيتي، وباختصار أطبقت عليّ كما تطبق السماء على الأرض حين تحين نهاية الزمان.

نعم هذه الثماني كلمات اختزلت خمس سنوات من حياتي دراستي وأصحابي، شقائي وغبطتي، أشيائي المحببة وأحلامي، جهدي كبريائي ونشاطي، كلماتي وأقلامي، لوعتي وهمساتي، وقاحتي ورغباتي المحمومة، جهدي وسهري، مرضي وسعادتي، حزني وفرحي، غضبي وضحكاتي، جديتي ومزاحي، مراهقتي وعشقي، شَطحي وتمردي، سُكري وتمردي، عواطفي ودموعي، رسائلي ورسائل أهلي، هفواتي وجُرأتي، خوفي وشكواي، إخلاصي واندفاعي، صبري وقلة حيلتي، قوتي وضعف مشاعري، حبيباتي وعلاقاتي، ذكرياتي

:- الإضبارة الحزبية: الملف الذي يشمل جميع المعلومات الأمنية والسياسية والاستخبارية والحزبية عن الشخص العراقي المتنمي إلى حزب ما.

ونزواتي، ابتسامات شبابي البريء ووحشة حياتي، لياليّ ونهاراتي، وفائي لصلوات أمي ودعوات أبي وأخيرًا غربتي القاتلة عنهم وعن الوطن.

لقد حطم هذا الرجل في أصنام الرغبة في الحياة وأعادني إلى مربع الذكريات الأليمة الأول، حتى وإن هذه المعلومة قد جاءت بعد أن أقنعتني الأحداث وأثبت لي القدر وأظهرت الحياة لي طبيعة علاقات مجتمعنا المعقدة وجوهر نظرته الدونية إلى مواطنيه الأصليين، والتناقض الصارخ في شخصية الإنسان العراقي، حتى وإن ادعى أرقى أنواع الحضارة والمعاصرة.

نهاية عام ١٩٩٨ وقبيل هروبي من العراق بجواز سفر مزور قمت بتمزيق هذه الإضبارة العفنة ورقة إثر أخرى، وأردت الإيغال في إذلالها بعد رميها في طاسة بناء (إناء معدني مستدير يستخدم لأغراض البناء) وسكبتُ البنزين عليها وأشعلتها وأنا أتطلع إليها بتشف وتلذذ فائق، حينما كانت ألسنة نيران الإضبارة تتراقص طربًا كنت أشاهد ذلك بفرح غامر وألعنُ كل ما كتب فيها.